6 ـ وتُسْلِمُنَا فكرة الإنعكاس، بما تحمله من رغبة ملحة في محاكمة «الخصم» (رأينا في بعض النماذج المدروسة أن الناقد يتخذ الشخصية الروائية كخصم يجب إظهار سخف آرائه، ومواقفه من الواقع) وإظهار زيف آرائه ومواقفه، بحكم أنها لا تُطابق ما يجري في الواقع، أقول تُسْلِمُنَا فكرة الإنعكاس هذه، إلى غلبة الموقف الإديولوجي المباشر للناقد، فحتى أولئك النقاد الذين ألغوا مواقفهم الإديولوجية في الجانب النظري فآستبدلوها بالنزعة الإنسانية أو بمفهوم الرؤية، وجدناهم عند التطبيق يلجأون إلى المقارنة الآلية بين محتويات الروايات المدروسة، ومكونات الواقع، على أساس ضرورة تحقُّق صورة مطابقة لهذه المكونات في العالم الروائي.

7 ـ ولم تكن شروط البحث العلمي تتحقق كلها في هذه الدراسات النقدية الاجتماعية، فكثيراً ما تم استخدام مفاهيم متعارضة، أو على الأقل تحتاج إلى تقديم مبررات الجمع بينها في إطار نسق منهجي واحد، كالجمع بين النقد الجدلي، والنقد النفسي أو المبادىء الوجودية. أو كالقول في الوقت نفسه بفردية الظاهرة الروائية وبجماعيتها، والاكتفاء بتحليل العمل الروائي وفق هذه المفارقة دون تفسير طبيعة العلاقة بين العامل الذاتي والعامل الموضوعي.

يضاف إلى ذلك ما يَحْصُلُ أحياناً من ارتجال في الأحكام، وتناقضات بيِّنة، مع استخدام المقاييس الظرفية، مما يكون له أثر كبير على القيمة العلمية للدراسات النقدية.

8 ـ والحكم العام الذي نستطيع أن نصدره بصدد ممارسة النقد الاجتماعي الروائي في ضوء النماذج المحللة ـ هو أن تيار الجذب السياسي كان يشدها دائماً إلى أن تتعامَل مع الفن الروائي باعتباره مجرد إديولوجيا. ما هي دواعي هذا التوجه؟ هذا سؤال يُتْرَكُ لدراسة سوسيولوجية متخصصة لكي تجيب عنه.

9 ـ وكنتيجة حتمية لكل هذه التوجُّهات، غابت الرواية العربية باعتبارها نصاً أدبياً بالدرجة الأولى، فإذا كانت الدراسات النقدية السوسيولوجية قد تحدثت كثيراً عن مضامين الرواية، والقضايا الاجتماعية التي تعالجها فإنها لم تقدم ـ بوضوح تام ـ صورة عن الفروق الجمالية بين مختلف اتجاهات الرواية العربية.

وهذا يعني أن جزءاً مهماً من نظرية الرواية لم تتم بلورته، وهو المتعلق بطبيعة الرواية من حيث تكوينها الجمالي. لقد تم التركيز فقط على وظيفة الرواية، وتحددت هذه الوظيفة في اعتبار الرواية شاشة حية تعكس الواقع، ولكنها قليلاً ما تشاكسه.

ويمكن أن نستخلص من مجموع دراستنا هذه أن التعامل مع الرواية باعتبارها مستودعاً للإديولوجيات أو باعتبارها موقفاً إديولوجياً، تحفه كثير من المزالق لأن الرواية هي قبل كل شيء إبداع أدبي، وينبغي أن ينظر إليها في المقام الأول من هذه الزاوية، ولا يمكن